الجزء التاسع — سورة الأنفال

سُورَةُ الأَنفَال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ الحزب ١ٮ
وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ (٣) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥)
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
(٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨)

١٧٧

سورة الأنفال

معانى الكلمات :

الأنفال : الغنائم .

لله وللرسول : حكمها مفوض لله ورسوله

وجلت : رقت هيبة .

إحدى الطائفتين : العير (القافلة) أو النصر فى المعركة .

ذات الشوكة : الحرب .

يقطع دابر الكافرين : يستأصلهم عن آخرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سبب نزول الآيات ، وحكم الله فى الأنفال .

٢ ـ أن نعرف صفات المؤمنين التى وردت فى الآيات ونتخلق بها .

٣ ـ أن ندرك شروط النصر الواردة فى الآيات ونأخذ بها .

المحتوى التربوى :

تعالج هذه الآيات الأولى من السورة ؛ بيان حكم الله فى الأنفال .. المغانم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم فى سبيل الله .. بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها ، فردهم الله إلى حكمه فيها ؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله ؛ واستجاش فى قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة ، وما أراده الله لهم من النصر والعزة .

قال ابن كثير فى التفسير : روى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه ـ واللفظ له ـ وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع فى ذلك شبان القوم وبقى الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذى جُعل لهم ، فقال الشيوخ : لا

تستأثروا علينا ، فإنا كنا ردءًا لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ .. إلى قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ولقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون فى الغنائم ؛ وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شىء ، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم ، لا يلوون على شىء من أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لا يبخلون بشىء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر : ٩) .

لقد كانت الأنفال مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة ؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ؛ وكان الناس ـ يومئذ ـ حريصين على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى ، فى أول وقعة يشفى فيها صدورهم من المشركين ، ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا فى الأنفال حتى ذكرهم الله به، وردهم إليه .. ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم فى التعامل ، والصلاح بين قلوبهم فى المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك فى مثل ما قاله عبادة بن الصامت ﷺ : « فينا أصحاب بدر ـ نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ .. » .

ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً ونزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ حتى أنزل حكمه فى قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ؛ إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ، يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التى تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله . وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب .. إنه لا يرد القلب البشرى عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها ـ وإن كان هذا النزاع متلبسًا هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء إلا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه فى الدنيا والآخرة . إن قلبًا لا يتعلق بالله يخشى غضبه ويتلمس رضاه، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ،ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق !

إن التقوى زمام هذه القلوب الذى يمكن أن تُقاد منه طائعة ذلولة فى يسر وفى هوادة .. وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها . وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله وأول الطاعة هنا طاعته فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال ، وهذه هى الترجمة الحقيقية للإيمان ، فلابد للإيمان من صورة عملية واقعية يتجلى فيها ، يثبت وجوده .

وهؤلاء المؤمنون لهم صفات كما ذكرت الآيات وكان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد فى نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمناً أصلاً .

جاء فى تفسير ابن كثير : قال على بن طلحة عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ « قال : المنافقون : لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا (أى عن أعين الناس) ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

يقول صاحب الظلال : « والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً ، وما ينتهى به إلى الاطمئنان .. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة ، ولا يحول بينه وبينه شىء إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه ؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ، ووجد فى إيقاعاته المتكرره زيادة فى الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان .. وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانًا ، فإن القلب المؤمن هو الذى يدرك هذه الإيقاعات التى تزيده إيماناً .. لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الحجر) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم : ٣٧) » ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن .. » .

فى الحكمة من فرضية القتال **يقول صاحب الأساس** : « الحق لا يثبت بلا قتال ، والباطل لا يضمحل بلا قتال ، والكافرون لا يستأصلون إلا بجهاد ، وإذا كان الأمر كذاك فالخير كل الخير فى القتال ، والشر كل الشر فى النكوص عما فرضه الله من جهاد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ للنصر بريقه ومسؤولياته ، والأمة المجاهدة تنهض بهذه المسؤوليات ، ولا تنخدع ببريق النصر .

٢ ـ من واجب من يحرصون على المغانم أن يسارعوا إلى العمل والكفاح ، وليعلموا أن تقوى الله وإصلاح ذات البين مقدم على كل شىء .

٣ ـ المؤمنون حقًا لا تستعبدهم المطامع المادية ، ولا يثيرون الفتن ، ويحسنون الصلة بالله ، ويقدمون خير الجماعة ومصلحتها على خير أنفسهم ومصلحتها ، ويؤدون ما عليهم من حقوق الله والمجتمع .

٤ ـ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى.

٥ ـ القرآن كتاب هداية أنزله الله ليربى به النفوس ويقوى به العزائم ويمحصها من كل ضعف أو هوان .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

معانى الكلمات :

تستغيثوا ربكم : تطلبون منه النجدة .

مردفين : يتبع بعضهم بعضًا .

رجز الشيطان : وسوسته بالخوف .

يربط على قلوبكم : يقويها باليقين .

فاضربوا فوق الأعناق : اضربوهم فى مواطن القتل من الرقاب .

كل بنان : الأطراف .

شاقوا : خالفوا وعصوا .

متحرفاً : مظهراً للفرار خدعة للعدو ليتمكن منهم .

متحيزاً : منضماً إلى مجموعة ليقاتل العدو .

مأواه : مصيره .

بئس المصير : ذم شديد لهذه النهاية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية الدعاء إلى الله وقت الرخاء والشدة والإلحاح منه فهو مخ العبادة .

٢ ـ أن نعتقد ونثق أن النصر بيد الله . والله ينصر من ينصره .

٣ ـ أن نعتقد أن الجهاد هو السبيل للعزة والكرامة فى الدنيا والآخرة وعلينا أن نعدَّ له عدته .

٤ ـ أن نعرف حكم الفرار من مواجهة الأعداء فى المعركة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يمضى السياق فى استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها ، حيث يتجلى كيف كانت حالهم ، وكيف دبر الله لهم ، وكيف كان النصر وليد تدبير الله أصلاً .. والتعبير القرآنى الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه وانفعالاته ، ليعيشوه مرة أخرى .. ليروا أبعاده الحقيقية حيث تشعر العصبة المسلمة بقيمتها فى ميزان الله ، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين ومقامها الأعلى .

فأما قصة الاستغاثة فلقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .

ويقول صاحب الظلال : ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين فى ميزان الله ؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببًا ينشىء نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه ـ سبحانه ـ تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به ..

كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون .. هذه هى الحقيقة الاعتقادية التى يقررها السياق القرآنى هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً ..

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما فى طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التى أصابت بعضهم فى مواجهة الخطر الواقعى ، وأن يمضوا فى طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهى دورهم ويجىء دور القدرة التى تصرفهم وتدبرهم ..وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتًا للقلوب فى مراجعة الخطر الواقعى .. وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت فى المعركة .

ثم يجىء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو « العزيز » القادر الغالب على أمره . وهو « الحكيم » الذى يحل كل أمر محله .

أما قصة النعاس الذى غشى المسلمين قبل المعركة ، فهى قصة حالة نفسية عجيبة ، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته ، فإذا النعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم .

وأما قصة الماء فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة ، فلقد أمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة » .. ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر ، وتغوير ما وراءها من القُلُب .

ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال : ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ؛ إلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة .

وفى نهاية هذا الاستعراض ، يجىء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها . وراء النصر فيها والهزيمة .

ويقول صاحب الظلال : « إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة إنما ذلك ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقًا غير شق الله ورسوله ، ووقفوا موقف الخلف والمشاقة هذا، يصدون عن سبيل الله ، ويحولون دون منهج الله للحياة .

وفى نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله .. إن هذا الذى حل بكم فى الدنيا من الرعب والهزيمة ليس نهاية المطاف ، فنهاية الأمر هو العذاب الذى لا يقاس إلى ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان !

والآن .. وبعد أن أعاد عليهم مشاهد الغزوة كاملة ، وأراهم يد الله فيها وتدبيره وعونه ومدده ، وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستارًا لقدر الله وقدرته . الآن يجىء الأمر للذين آمنوا ـ بصفتهم هذه ـ أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ، ما دام النصر والهزيمة موكولين إلى إرادة فوق إرادة الناس وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التى يراها الناس .

وما دام أن الله هو الذى يدبر أمر المعركة ـ كما يدبر الأمر كله ـ وهو الذى يقتل الكافرين بأيدى المؤمنين ؛ وهو الذى ينجح الرمية حين ترمى ـ وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه ـ وهو الذى يلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم ويذيقهم العذاب فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله .

ويقول صاحب الظلال : « وقد وردت بعض الأقوال فى اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل بدر ، أو بالقتال الذى يكون الرسول ﷺ حاضره .. ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولى يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات كما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات .... ـ ذكر منهن ـ التولى يوم الزحف ، ... ... الحديث » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ فى الشدائد والإلحاح فى الدعاء ، فإن يحب أن يسمع صوت عبده بالدعاء ولا يعجل بعجلة أحدكم .

٢ ـ لله ـ تعالى ـ جنود لا يعلمها إلا هو ، والنصر بيده وحده ؛ فعلى الدعاة ، أن يكونوا مع الله بإيمانهم وعملهم ، وثقتهم به ، ليكون معهم ، يؤيدهم بنصره ويعزهم بعزته .

٣ ـ فى الجهاد حياة الأمة وعزتها ، فمن واجب الأمة أن تحرص عليه ، وأن تأخذ بأسبابه ، وأن تجيب داعى الدين والوطن إذا دعاها لما يحييها من المسارعة إليه ، والصبر على مكارهه .

٤ ـ الفرار من مواجهة الأعداء فى المعركة ، خوفًا من الموت ، جبن لا يليق بالمسلم ، ومن الموبقات التى أمر الله أن نجتنبها .

سورة الأنفال — الجزء التاسع

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ
وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۖ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

الحزب ١٨

١٧٩

معانى الكلمات :

ليبلى المؤمنين : لينعم عليهم بالنصر والأجر.

موهن : مُضعف .

كيد الكافرين : حِيَلهم

تستفتحوا : تطلبوا النصر لأهدى الفئتين .

فئتكم : جماعتكم .

ولا تتولوا عنه : ولا تتراجعوا عن طاعة الرسول ونصرته .

الصم: الذين أصموا آذانهم عن سماع الحق.

البكم : الذين لا ينطقون بالحق .

فتنة : ذنبًا شديدًا كتفريق الكلمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نفقه موازين النصر والغلبة فى ضوء سنن الله الجارية من الآيات .

٢ ـ أن نعلم أن طاعة الله ورسوله سبيلنا إلى العزة والسيادة فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نستجيب لله ولرسوله فيما يدعونا إليه وندعو الناس إلى ذلك .

٤ ـ أن نعرف أهمية وضرورة الأمر بالمعروف والنهى من المنكر .

المحتوى التربوى :

بعد أن حذر الله من التولى يوم الزحف ، يمضى السياق ليكشف لهم عن يد الله وهى تدير المعركة من ورائهم ، وتقتل لهم أعداءهم ، وترمى لهم وتصيب .. وهم ينالون أجر البلاء ؛ لأن الله يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء ، ليثيبهم عليه من فضله وهو الذى وهبهم إياه .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الله ﷺ فى وجوه الكفار ، وهو يقول : « شاهت الوجوه . شاهت الوجوه » فأصابت المشركين ممن كتب

عليهم القتل فى علم الله .. ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبى ﷺ والعصبة المسلمة معه ؛ ولذلك تلاها قول الله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ : أى ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذى ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصر ، فهو الفضل المضاعف أولًا وأخيرًا .

ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة .. فإذا كان الله هو الذى قتل المشركين ، وهو الذى رماهم ، وهو الذى أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن، وهو الذى أوهن كيد الكافرين .. فما النزاع والاختلاف إذن فى الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارًا لهذا التدبير والتقدير ؟ !

ويتجه الخطاب إلى الكافرين ، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة ، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وآتاهما بما لا يُعرف وأقطعهما للرحم ـ كما كان دعاء أبى جهل وهو استفتاحه : أى طلبه الفتح من الله والفصل ـ فدارت الدائرة على المشركين !

ثم يرغبهم الله فى الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر والحرب للمسلمين ، والمشاقة لله ورسوله ومع الترغيب والترهيب ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ والعاقبة معروفة ، لا يغيرها تجمع ولا تبدلها كثرة ، وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله فى جانب المؤمنين .

والمعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبداً ؛ لأن المؤمنين ـ ومعهم الله عز وجل ـ سيكونون فى صف ؛ والكفار ـ وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم ـ سيكونون فى الصف الآخر ، والمعركة على هذا النحو مقررة المصير !

ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا ـ بعد أن ذكرهم أن الله معهم .. يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ، ويحذرهم التولى عنه ، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تُتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها .. أولئك الصم البكم وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات ، وألسنة تنطلق بالكلمات أولئك الذين هم شر الدواب التى تدب على هذه الأرض ؛ لأنهم لا يهتدون بما يسمعون .

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب فى الاستجابة والترهيب من الإعراض ، والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله وللرسول .

فرسول الله ﷺ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معانيها فهو يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول وتطلقها من الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ، تعلن تحرر الإنسان وتكريمه بصدورها عن الله وحده ؛ ويدعوهم إلى منهج للحياة وللفكر وللتصور ، ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، ويدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله ـ سبحانه ـ فى الأرض ، وفى حياة الناس ، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله ـ سبحانه ـ وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله ، حتى إذا أصابهم الموت فى هذا الجهاد كان لهم فى الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ وهو دعوة إلى الحياة بكل معانى الحياة ؛ ثم يحذرهم القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحياة ، والتراخى فى تغيير المنكر فى أية صورة كان .

ويقول صاحب الظلال : « وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة ولا تقف فى وجه الظالمين ؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين .. فالإسلام منهج تكافلى إيجابى لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع ، بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها !) وهم ساكتون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة ؛ لأنهم هم فى ذاتهم صالحون طيبون !

قال القاسمى : روى الإمام أحمد عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر مما يعملون ، ثم لم يغيّروه ، إلا عمهم الله بعقاب » ؛ وعن ابن عباس . « أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب » ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أى : لمن يخالف أوامره .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ النصر من عند الله ينعم به على المؤمنين ليضعف به كيد الكافرين ، ولا يمنع ذلك من الأخذ بالأسباب .

٢ ـ طاعة الله ورسوله سبيل المؤمنين إلى العزة والسيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

٣ ـ على الدعاة أن يحذروا أن يحول الله بينهم وبين قلوبهم إن هم قصروا فى الأخذ بكتاب الله عز وجل ، والاستجابه لمنهجة وتشريعه بإقرار حكمه وشرعه وجهاد أعدائه .

٤ ـ وجوب وضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن العذاب يصيب الذين ظلموا والذين لم يظلموا ؛ لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، والذى لم يظلم يهلك لعدم منعه الظالم عن ظلمه ، ولسكوته على الباطل حتى يصيبه شره .

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا
اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ
أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

معانى الكلمات :

الناس : الكفار

آواكم : حماكم .

لا تخونوا الله والرسول : بالتظاهر بالطاعة، وإخفاء المعصية .

فتنة : ابتلاء ومحنة .

فرقاناً : نورًا وهداية .

ليثبتوك : يقيدوك ويحبسوك .

يمكرون : يدبرون لك المكائد .

ويمكر الله : يعاملهم معاملة الماكرين ، ويبطل كيدهم .

أساطير الأولين : أقاصيص وأكاذيب السابقين فى كتبهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر فتنة الأموال والأولاد فإن مهلكة .

٢ ـ أن نحذر خيانة الأمانة ، لسوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نعرف فضل الاستغفار ونحرص عليه دائماً .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يذكر القرآن العصبة المسلمة ـ التى كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة ـ بما كان من ضعفها وقلة عددها ، وبما كان من الأذى الذى ينالها ، والخوف الذى يظللها . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقًا طيبًا .. فلا تقعد إذن عن الحياة التي يدعو إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة ، التى أعزها بها الله ، وأعطاها وحماها .

يقول القرآن لهذه الفئة : اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ، واذكروه كى لا تقعدوا عن مكافحة الظلم فى كل صوره وأشكاله . اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة فأنتم

كارهون .. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التى انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !

ثم يتكرر الهتاف مرة أخرى للذين آمنوا ـ إن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفاً وبخلاً والحياة التى يدعوكم إليها الرسول ﷺ حياة كريمة ، لابد لها من تكاليف ، ولابد لها من تضحيات . لذلك يعالج ؛ لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد ـ فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان ـ وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ؛ ومن التخلف عن دعوة الجهاد ؛ وعن التكاليف المنبثقة من الأمانة والعهد والبيعة . واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول ، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمة المسلمة فى الأرض ، وهى إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد ، والوصاية على البشرية بالحق والعدل .

ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد ، التى قد تُقعد الناس عن التضحية والجهاد .

يقول صاحب الظلال : كذلك يحذر الله ـ العصبة المسلمة التى آمنت به وأعلنت هذا الإيمان ـ يحذر خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام، فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وأدعيات . إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاكل ، إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله ؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعًا ؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت ؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله .. وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها ، وخاس بعهده الذى عاهد الله عليه ، ونقض بيعته التى بايع بها رسوله » .

ويأتى الهتاف الأخير للذين آمنوا ـ فى هذا المقطع من السورة ـ هو الهتاف بالتقوى ، فما تنهض القلوب بهذه الأعباء الثقال ، إلا وهى على بينة من أمرها ونور يكشف الشبهات ويزيل الوساوس ، ويثبت الأقدام على الطريق الشائك الطويل . وما يكون لها هذا الفرقان إلا بحساسية التقوى وإلا بنور الله . هذا هو زاد القلوب وزاد المغفرة للخطايا والزاد المطمئن الذى يسكب الهدوء والقرار وزاد الأمل فى فضل الله العظيم ، يوم تنفد الأزواد وتقصر الأعمال .

ويمضى السياق يصور موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله ﷺ قبيل الهجرة ويتآمرون . وهم يُعرضون عما معه من الآيات ويزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثلها لو يشاؤون ! وهم يعاندون ويلج بهم العناد حتى ليستعجلون العذاب ـ إن كان هذا هو الحق من عند الله ـ بدلاً من أن يفيئوا إليه ويهتدوا به !

ثم يمضى السياق يصف العجب العجاب من عناد المشركين فى وجه الحق الذى يغالبهم فيغلبهم ، فإذا الكبرياء يصدهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه ، وإذا بهم يتمنون على الله ـ إن كان هذا هو الحق من عنده ـ أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو أن يأتيهم بعذاب أليم . بدلاً من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع هذا الحق والوقوف فى صفه .

وهو دعاء غريب ؛ يصور حالة من العناد الجامح الذى يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقاً ؛ ويعلق صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ قائلاً : إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها إليه ، دون أن تجد فى هذا غضاضة . ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحًا لا ريب فيه .. وبمثل هذا العناد كان المشركون فى مكة يواجهون دعوة رسول الله ﷺ ولكن هذه الدعوة هى التى انتصرت فى النهاية فى وجه هذا العناد الجامح الشموس !

ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الادعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار الحجارة عليهم من السماء وللعذاب الأليم الذى طلبوه ـ إن كان هذا هو الحق من عنده ـ وإنه للحق . مع هذا فإن الله قد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذى أخذ به المكذبين قبلهم ؛ لأن رسول الله ﷺ بينهم ، ولا يزال يدعوهم إلى الهدى . والله لا يعذبهم عذاب الاستئصال والرسول فيهم . كما أنه لا يعذبهم هذا العذاب على معاصيهم إذا كانوا يستغفرون منها ؛ وليس تأخير العذاب عنهم لمجرد أنهم أهل هذا البيت فهم ليسوا بأولياء هذا البيت إنما أولياؤه المتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الهجرة درس خالد للتخطيط ، واليقظة ، والصبر ، واحتمال الآلام فى سبيل القيم والمثل الكريمة .

٢ ـ الأموال والأولاد فتنة يجب الحذر منها ، بل وتوجيهها لخدمة الإسلام .

٣ ـ من ثمرات التقوى تكفير السيئات وغفران الذنوب ، والفرقان وهو نور فى القلب يفرق به المؤمن بين الأمور المتشابهات والتى خفى فيها وجه الحق والخير .

٤ ـ تحريم الخيانة مطلقاً وأسوؤها ما كان خيانة لله ولرسوله .

٥ ـ التذكير بنعم الله تعالى على العبد ليجد العبد فى نفسه داعية الشكر فيشكر .

٦ ـ فضيلة الاستغفار وأنه ينجى من عذاب الدنيا والآخرة .

الجزء التاسع — سورة الأنفال

وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد
الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون
ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٣٤﴾ وما كان صلاتهم
عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب
بما كنتم تكفرون ﴿٣٥﴾ إن الذين كفروا ينفقون
أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون
عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم
يحشرون ﴿٣٦﴾ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل
الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله
في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴿٣٧﴾ قل للذين
كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا
فقد مضت سنت الأولين ﴿٣٨﴾ وقاتلوهم حتى
لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن
انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴿٣٩﴾ وإن تولوا
فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴿٤٠﴾

١٨١

معاني الكلمات :

يصدون عن المسجد الحرام : يمنعون المسلمين من زيارته .

مكاء : صفير .

تصدية : تصفيقًا .

ليميز : يفرق .

يركمه جميعًا : يجمعه ملقى بعضه على بعض .

ما قد سلف : ما قد مضى من الذنوب .

مضت سنة الأولين : عادة الله وعقابه للمكذبين .

فتنة : شرك وبلاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية التوبة ونتعهد أنفسنا بها دائماً بشروطها الشرعية .

٢ ـ أن نتعظ من عاقبة الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .

٣ ـ أن نعلم أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة ونُعدَّ له عدته .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات ـ وبعد أن ضمن لهم السلامة من العذاب ماداموا يستغفرون ، إلا أنه لا يمنع العذاب عنه ما يدعونه من أنهم ورثة إبراهيم وسدنة بيت الله الحرام ، فهذه ليست سوى دعوة لا أساس لها من الواقع ، إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه ، إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت الله ليس تركة يرثها الخلف عن السلف ، إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله ، ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم عليه السلام الذى بناه لله ، فإذا هم يصدون عنه أولياءه الحقيقيين المؤمنين بدين إبراهيم ! .

إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت ، وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم ، فما هذه بصلاة ! إنما كانت صفيرًا بالأفواه وتصفيقًا بالأيدى ، وهرجًا ومرجًا لا وقار فيه ، ولا استشعارًا ـ لحرمة البيت ، ولا خشوع لهيبة الله .

ليس هذا فحسب ، بل إن الكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله ، هكذا فعلوا يوم بدر ، وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية ، والله ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون ، ويعدهم الهزيمة فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة .

ويقول صاحب الظلال : وليس هذا الذى حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجًا من الأسلوب التقليدى لأعداء هذا الدين ، إنهم ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، فى الصد عن سبيل الله ، وفى إقامة العقبات فى وجه هذا الدين ، وفى حرب العصبة المسلمة فى كل أرض وفى كل حين .

إن المعركة لن تكف . وأعداء هذا الدين لن يدعوه فى راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين فى أمن ، وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ؛ ثم الإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .

والله ـ سبحانه ـ ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة ، إنهم سينفقونها لتضيع فى النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق فى هذه الدنيا ، وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، فتتم الحسرة الكبرى .

ويقول صاحب الظلال : إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويملى له فى العدوان ؛ فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة ، وفى هذا الاحتكاك المرير ، تنكشف الطباع ، ويتميز الحق من الباطل ، ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أمانته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة، عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث، فيلقى به فى جهنم، وتلك غاية الخسران .

وعندما يصل السياق إلى هذا التقرير الحاسم ، عن مصير الكفر المتعاون ، ونهاية الخبث المتراكم ، ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الكافرين إنذاره الأخير ، ويتجه بالخطاب كذلك إلى الفئة المسلمة يأمرها بالقتال حتى لا تكون فى الأرض فتنة ،وحتى يكون الدين كله لله ، ويطمئن الفئة المؤمنة المجاهدة إلى أن الله مولاها ونصيرها ، فلا غالب لها من الناس بحرب ولا بكيد ، والله وليها الناصر المعين .

وفى الإنذار الأخير للذين كفروا يتيح الله ـ عز وجل ـ لهم الفرصة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله ، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله ، والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله ، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف فالإسلام يجبُّ ما قبله ، ويدخله الإنسان بريئاً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه .

فأما إن هم عادوا ـ بعد هذا البيان ـ إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان ، فإن سنة الله فى الأولين لا تتخلف ، ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين ؛ وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين وهذه السنة ماضية لا تتخلف ، وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق !

وبذلك ينتهى الحديث مع الذين كفروا ويتجه السياق إلى الذين آمنوا : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ... الآية ؛ وهذه حدود الجهاد فى سبيل الله فى كل زمان، لا فى ذلك الزمان ،ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد فى هذه السورة، وبقوانين الحرب والسلام، ليست هى النصوص النهائية ، فقد نزلت النصوص الأخيرة فى هذا الباب فى سورة براءة التى نزلت فى السنة التاسعة .

ولكى يكون الدين كله لله ، **يقول صاحب الظلال** : ولابد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين :

أولهما : دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان ، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد فى جميع الصور والأشكال، وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركى تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه فى عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدى بالأذى والفتنة على معتنقى هذا الدين .

ثانيهما : تحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر ـ فى صورة من الصور ، وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها فى الأرض كلها ، بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده ـ فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله ـ وليس مجرد الاعتقاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ باب التوبة مفتوح حتى أمام الكافرين إن هم رجعوا عن كفرهم وضلالهم ، وعدوانهم للرسل قبل الله توبتهم .

٢ ـ كل من حارب الله وعادى رسوله ، فإن عاقبته هى عاقبة الأمم السابقة التى أصابها الهلاك بسبب كفرها وإثمها .

٣ ـ إذا كان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فلينفق الذين آمنوا أموالهم ليهدوا الناس إلى سبيل الله حتى لا تكون أموالهم حسرة عليهم مثل الكافرين .

٤ ـ الجهاد فى سبيل فريضة ماضية ليوم القيامة لدفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ولتحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر .

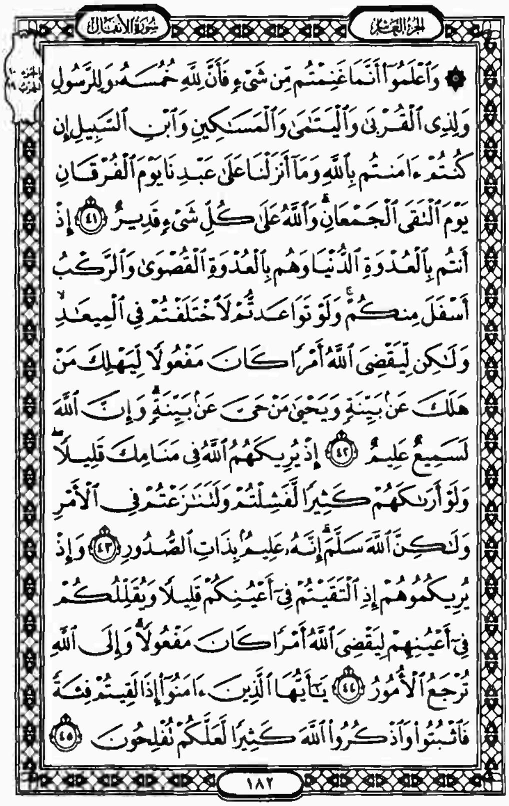

معانى الكلمات :

ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله .

يوم الفرقان : يوم بدر .

الجمعان : المسلمون والكفار .

بالعدوة الدنيا : بجانب الوادى الأقرب للمدينة .

العدوة القصوى : البعيدة عنها وفيها تجمع الكفار .

الركب : عير قريش .

بينة : علم .

تنازعتم فى الأمر : اختلفتم فيه .

لقيتم فئة : حاربتم جماعة .

تفلحون : تفوزون بتأييد الله ونصره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية الإيمان كزاد وكطاقة موجهة تنبثق عنها الأفعال .

٢ ـ أن ندرس أسباب النصر وعوامله ونأخذ بها فى حياتنا .

٣ ـ أن نستكمل دراسة وتحليل غزوة بدر من خلال سياق الآيات .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات تعطى نموذجًا واضحًا للتقريرات الجازمة فى السورة ؛ فلقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها فى المعركة ؛ وردها إلى الله والرسول ـ فى أول السورة ـ ليخلص الأمر كله لله والرسول؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض؛وليسلموا أمرهم كله ـ أوله وآخره ـ لله ربهم وللرسول قائدهم؛ وليخوضوا المعركة لله وفى سبيل الله ، وتحت راية الله، طاعة لله ، يحكمونه فى أرواحهم ، ويحكمونه فى أموالهم ويحكمونه فى أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض ، فهذا هو الإيمان ، كما قال لهم فى مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله ورسوله .

حتى إذا استسلموا لأمر الله ، وارتضوا حكمه ذاك ، فاستقر فيهم مدلول الإيمان . عاد ليرد على أربعة أخماس الغنيمة ، ويستبقى على الأصل ـ لله والرسول ـ يتصرف فيه رسول الله ﷺ وينفق منه على من يعولهم فى الجماعة المسلمة من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة ، وقد استقر فى نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح ، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ، إنما هم يستحقون بمنح الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذى يمنحهم النصر من عنده ؛ ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله ، وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان ، هو شرط الإيمان ومقتضى الإيمان .

يقول صاحب الظلال : لقد كانت غزوة بدر ـ التى بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده ـ فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً ، ولكنه الحق الأصيل الذى قامت عليه السموات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء ، الحق الذى يتمثل فى تفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ؛ وفى عبودية الكون كله . وكانت فرقانا بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية : عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار .

وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت كل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة ، لتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلامًا يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

ويتواصل السياق ليواصل رسم مشاهد المعركة ويقرر أن الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبى سفيان واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبى سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبى جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة ! وقال لهم الله سبحانه ـ إنه صنع هذا ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ .

ولقد كان من تدبير الله فى المعركة أن يرى رسول الله ﷺ الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن ، فينبئ أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة ، ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلاً ـ فلقد علم ـ سبحانه ـ أنه لو أراهم له كثيرًا ، لَفَتَّ ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ،

وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم ، وفريق يرى تجنب الالتحام بهم ، وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشاً يواجه عدواً !

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ..ولقد كان ـ سبحانه ـ يعلم بذوات الصدور، فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف ، فأرى نبيه المشركين فى رؤيا ه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيرًا .

وحينما التقى الجمعان وجهًا لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة ، فى صورة عيانية من الجانبين ، وكان هذا من التدبير الذى يذكرهم الله به ، عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها ، ولقد كان هذا التدبير الإلهى ما أغرى الفريقين بخوض المعركة ، والمؤمنون يرون أعداءهم قليلاً ـ لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! ـ والمشركون يرونهم قليلاً ـ وهم يرونهم بعين الظاهر ـ ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها تحققت غاية التدبير الإلهى ؛ ووقع الأمر الذى جرى به قضاؤه .. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك ، التدبير تدبير الله ، والنصر من عند الله ، والكثرة العددية ليست هى التى تكفل النصر ، والعدة المادية ليست هى التى تقرر مصير المعركة ، فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا ؛ وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة ؛ وليأخذوا بالأسباب الموصولة ، بصاحب التدبير والتقدير ، وصاحب العون والمدد ، وصاحب القوة والسلطان ، وليجتنبوا أسباب الهزيمة التى هزمت الكفار على كثرة العدد وكثرة العدة ، وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل ، وليحترزوا من خداع الشيطان ، الذى أهلك أولئك الكفار، وليتوكلوا على الله وحده فهو العزيز الحكيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التذكير بالإيمان ، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حى بإيمانه يقدر على الفعل والترك ، والكافر ميت فلا يكلف .

٢ ـ مرد الأمور نجاحًا وإخفاقًا لله تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه .

٣ ـ ليس النصر بكثرة العدد ولا بقوة السلاح ، وإنما بإرادة الله ـ تعالى ـ وقوة الإيمان .

٤ ـ للقوة المعنوية أثرها فى الاستماتة فى القتال ، وإحراز النصر .

٥ ـ من أسباب النصر وعوامله: الثبات وذكر الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله ، وطاعة القيادة، وترك النزاع والخلاف ، والتحلى بالصبر والإخلاص .

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
واصبروا إن الله مع الصابرين ﴿٤٦﴾ ولا تكونوا كالذين
خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون
عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴿٤٧﴾ وإذ زين لهم
الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من
الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص
على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون
إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴿٤٨﴾ إذ يقول
المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم
ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴿٤٩﴾
ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون
وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴿٥٠﴾ ذلك
بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿٥١﴾
كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله
فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ﴿٥٢﴾

معانى الكلمات :

فتفشلوا : يصيبكم الجبن والخوف .

تذهب ريحكم:تضعف قوتكم أو دولتكم.

بطرا : طغيانا وتكبراً .

رئاء الناس : للتظاهر أمام الناس .

زين لهم الشيطان أعمالهم : وسوس إليهم بحسن أعمالهم فى عيونهم .

جار لكم : معين وناصر لكم .

نكص على عقبيه : فرّ وبطل كيده .

أدبارهم : ظهورهم .

ما قدمت أيديكم : ما ارتكبتم من الكفر والمعاصى .

كدأب آل فرعون : شأن الكفار وعادتهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعى وندرك أسباب وموازين النصر والقوة بالآيات ، ونأخذ بها .

٢ ـ أن نحذر المنافقين ودورهم فى خلخلة الصف المسلم .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع السابقين من الهالكين الذين كذبوا بآيات الله ورسوله .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتوجه المولى عز وجل بنداء الذين آمنوا ـ فى سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة فى السورة، وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزود بزاد النصر ، والتأهب بأهبته فهذه هى عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو ، والاتصال بالله بالذكر ، والطاعة لله والرسول وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة ، والحذر من البطر والرئاء والبغى .

ويقول صاحب الظلال : « فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر ، فأثبت الفريقين أغلبهما ، وما يُدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ؛ فلا مدد له من رجاء فى الله يثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى

فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذى يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا ، وهو حريص على هذه الحياة التى لا أمل له وراءها ، ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها ؟ !

وأما ذكر الله كثيرًا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ، كما أنه التعليم المطرد الذى استقر فى قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم فى تاريخ الأمة المسلمة فى موكب الإيمان التاريخى ، ومما حكاه القرآن الكريم عن الفئة القليلة المؤمنة من بنى إسرائيل ، وهى تواجه جالوت وجنوده : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥٠) .

ومما حكاه أيضاً عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ فى مواجهة المعركة ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (آل عمران) .

يقول صاحب **الظلال** : « إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التى لا تغلب ؛ والثقة بالله الذى ينصر أولياءه ، وهو فى الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهى معركة لله ، لتقرير ألوهيته فى الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ وإذن فهى معركة لتكون كلمة الله هى العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصى أو القومى كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله فى أحرج الساعات وأشد المواقف » .

ويتواصل السياق محذرًا الفئة المؤمنة أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التى أعطاها الله لها فى غير ما أرادها ، والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال فى سبيل الله ، وقريش كانت تمثل صورة الخروج من أجل الكبر والخيلاء والبطر ، فقال أبو جهل : « لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبدًا » ..

ويصور السياق وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذى نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والانكسار ، وقال لهم الشيطان بما ألقاه فى هواجسهم : ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فأنتم أعز نفراً وأعظم بأساً ،وإنى مع هذا جار لكم؛وقال البيضاوى فى تفسيره : أوهمهم أن اتباعهم إياه ، فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين ، ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ وتولى إلى الوراء ، ثم زاد على

هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

وبعد ، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البائس ، كان المنافقون والذين فى قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون ، وهم يرونها تواجه جحافل المشركين وهى قليلة العدد ضعيفة العدة ؛ ويرون ، بقلوبهم المدخولة ونظرتهم إلى الظواهر المادية الخادعة ـ أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم .

ويقول صاحب الظلال : « والعصبة المسلمة فى كل مكان وزمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان العقيدة ؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقى بالها دائماً إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وأخيراً يعرض السياق القرآنى مشهدًا من مشاهد التدخل الإلهى فى المعركة ، والملأ الأعلى من الملائكة ـ بأمر الله وإذنه ـ يشارك فى أخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب ؛ والملائكة يقبضون أرواحهم فى صورة منكرة ، ويؤذونهم أذى مهيناً ـ جزاء على البطر والاستكبار ، ويذكرونهم فى أشدّ اللحظات ضيقا وحرجًا سوء أعمالهم ، وبسوء مآلهم وفاقاً لا يظلمهم الله فيه شيئاً ، ويقرر السياق فى إثر عرض هذا المشهد أن أخذ الكفار بتكذيبهم سنة ماضية : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وأنه كذلك أخذ فرعون وملأه ، وكذلك يأخذ كل من يفعل فعله ويشرك شركه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من موازين النصر طاعة الله ورسوله ، وأوامر القادة وأولى الأمر ، والبعد عن التنازع والاختلاف ، والصبر على مكاره القتال ، وعدم الكبر والغرور ، وعدم التظاهر أمام الناس بالأعمال .

٢ ـ الإسلام دين السلام ، ولكنه السلام العزيز البعيد عن الضعف والاستسلام .

٣ ـ الحرب النفسية من وسائل القتال ، ولها أثرها الفعال فى نتائجه ، فمن واجب الأمة المسلمة الأخذ بها ، واعتمادها فى مواجهة العدو ، والحذر منها على الجبهة الداخلية وحذر كيد المنافقين والأعداء .

٤ ـ وجوب التوكل على الله،والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ
لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ
الحزب ١٩ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

معانى الكلمات :

شر الدواب : أسوأ من دب على الأرض .

تثقفنهم فى الحرب : تلتقين بهم .

فشرد بهم من خلفهم : ففرق وخوف بهم من وراءهم .

انبذ إليهم : اطرح عهدهم .

سبقوا : أفلتوا من يد الله ومن عذابه .

ترهبون : تخوفون .

آخرين من دونهم : أعداء غيرهم كاليهود.

يوف إليكم : تنالوا جزاءه كاملاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم سنة الله فى المنع والعطاء .

٢ ـ أن نلتزم بأحكام الإسلام فى التعامل مع الأعداء .

٣ ـ أن نعلم بالمقصود بإعداد القوة والحكمة من إعدادها .

٤ ـ أن ندرك طبيعة ومفهوم السلام وحتى ومتى ومن نسالم .

المحتوى التربوى :

تقرر هذه الآيات فى بدايتها عدل الله فى معاملة العباد ؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ، ولم يشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ؛ ويجعل التغيير القدرى فى حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم .

ومن الجانب الثالث يُلقى تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ، ويملك أن يزاد عليها ، إذا هو عرف فشكر ؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياهم فانحرفت خطاه .

وتصور هذه الآيات حقيقة أخرى ؛ حقيقة التلازم بين العمل والجزاء فى حياة هذا الكائن ونشاطه ؛ وتصور عدل الله المطلق ، فى جعل هذا التلازم سنة من سننه يجرى بها قدره ، ولا يظلم فيها عبد من عبيده .

ثم تناقش الآيات التالية الكثير من قواعد التعامل مع المعسكرات المتنوعة فى السلم والحرب؛ والتنظيمات الداخلية بالمجتمع الإسلامى وعلاقتها بالمنظمات الخارجية ؛ ونظرة الإسلام إلى العهود والمواثيق فى شتى الأحوال ، ومن بين هذه القواعد والأحكام التى وردت فى السياق القرآنى :

* أن الذين يعاهدون المعسكر الإسلامى ، ثم يخلفون عهدهم معه هم شر الدواب ، ومن ثم ينبغى أن يؤدبهم المعسكر الإسلامى تأديبًا يلحظ فيه الإرهاب الذى يشردهم ويشرد من وراءهم ممن تراودهم نية نقض العهد أو نية مهاجمة المعسكر الإسلامى ، والملاحظ أنه بعد نزول هذه الآيات عندما غدرت قريش ببنى خزاعة ، ناقضة عهد الحديبية ، باغتهم رسول الله ﷺ وفتح مكة ، ولأن الضربة القاصمة تحتاج إلى جرأة ، ولأن الإعلام بإلغاء المعاهدات قد يتسبب عنه ما يفوت على المسلمين فرصة المفاجأة ، فقد أعلمنا الله أن الكافرين مهما بلغوا من القوة فإنهم فى قدرته وقبضته فلا يعجزونه ، فلا يبالى المسلمون إذن إلا بتطبيق أمر الله .

* أن المعاهدين الذين تخشى القيادة الإسلامية منهم نقض العهد والخيانة ؛ فإن لهذه القيادة أن تنبذ إليهم عهدهم ، وتعلنهم بإلغائه ومن ثم تصبح فى حل من قتالهم وتأديبهم وإرهاب من وراءهم من أمثالهم .

* أنه يجب على المعسكر الإسلامى إعداد العدة دائماً واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة ، لتكون القوة المهتدية هى القوة العليا فى الأرض ؛ التى ترهبها جميع القوى المبطلة ؛ والتى تتسامع بها هذه القوى فى أرجاء الأرض ، فتهاب أولًا أن تهاجم دار الإسلام ؛ وتستسلم كذلك لسلطان الله فلا تمنع داعية إلى الإسلام فى أرضها من الدعوة ، ولا تصد أحدًا من أهلها عن الاستجابة ، ولا تدعى حق الحاكمية وتعبيد الناس ، حتى يكون الدين كله لله .

* أنه إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المعسكر الإسلامى وموادعته وعدم الوقوف فى وجهه ، فإن القيادة الإسلامية تقبل منهم المسالمة ، وتعاهدهم عليها ، فإن أضمروا الخديعة ولم يبد فى الظاهر ما يدل عليها ، ترك أمرهم إلى الله ، وهو يكفى المسلمين شر الخادعين .

يقول صاحب الظلال : هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل فى حياة الجماعة المسلمة، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة ؛ وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التى تواجه بها هذه الحالة .

وهى تمثل إحدى قواعد العلاقات الخارجية بين المعسكر المسلم وما حوله من المعسكرات الأخرى ، ولم تدخل عليها إلا تكملات وتعديلات جانبية فيما بعد ؛ ولكنها ظلت إحدى القواعد الأساسية فى المعاملات الإسلامية الدولية .

إنها تقرر إمكان إقامة عهود تعايش بين المعسكرات المختلفة ؛ ما أمكن أن تُضاف هذه العهود من النكث بها ؛ مع إعطاء هذه العهود الاحترام الكامل والجدية الحقيقية ، فأما إذا اتخذ الفريق الآخر هذه العهود ستارًا يدبر من ورائه الخيانة والغدر ، ويستعد للمبادأة والشر ؛ فإن للقيادة المسلمة أن نبذ هذه العهود ، وتعلن الفريق الآخر بهذا النبذ ، وتصبح مطلقة اليد فى اختيار وقت الضربة التالية للخائنين الغادرين ، على أن تكون هذه الضربة من العنف والشدة بحيث ترهب كل من تحدثه نفسه بالتعرض للمجتمع المسلم سرًا أو جهرًا !

فأما الذين يسالمون المعسكر الإسلامى ؛ ويريدون عدم التعرض للدعوة الإسلامية ، أو الحيلولة دون وصولها إلى كل سمع ؛ فإن للقيادة المسلمة أن توادعهم ما دام ظاهرهم يدل على أنهم يجنحون إلى السلم ويريدونها .

فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ **يقول الشيخ محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير** : « خصت الخيل بالذكر لأنها كانت قوة الحرب ، وهى رمز القوة ، ولقد قال النبى ﷺ : الخيل ثلاثة لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنيا وتعففا . ولم ينس حق الله فى رقابها ، ولا فى ظهورها فهى له ستر ، ورجل ربطها فخر ورياء فهى له وزر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنة الله فى خلقه أن ينعم عليهم ، ويتركهم لاختيارهم ، فإن شكروه على نعمة ، أبقاها وزادها ، وإن جحدوا وكفروا بها ، بدل حالهم وسلبهم ما أنعم به عليهم .

٢ ـ إعداد القوة القاهرة فى كل وقت والتأهب دائماً لقتال الأعداء ، والإفادة من الوسائل الحديثة التى تدخل ضمن إطار القوى والردع ، وذلك من أقوى ما يُساعد الأمة على أن تعيش فى أمان ، وفى ظل حياة كريمة .

٣ ـ ليست الحرب فى الإسلام للعدوان ولا للتعدى وإنما لحماية الدين وصيانة الوطن .

٤ ـ القوة واعدادها يشمل كل ما يرهب الأعداء ماديًا ومعنويًا .

٥ ـ قبول السلام ـ إن مال إليه الأعداء ـ إذا كان من منطلق القوة ، وليس سلاماً يقوم على الخذلان والتنازلات .

الجزء العاشر — سورة الأنفال

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ
بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ
مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ
صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا
وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ
ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا
غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

١٨٥

معانى الكلمات :

حسبك الله : كافيك غدرهم وشرهم .

أيدك بنصره : قواك به .

ألف بين قلوبهم : جمعها ووحد وجهتها .

حرّض : شجع وحُض .

لا يفقهون : يجهلون دين الله وما وراءه من هدى ونور .

يُثخن فى الأرض : يبالغ فى قتل الكفار .

عرض الدنيا : المراد النفع السهل بقبول الفداء .

مما غنمتم : مما أخذتم من فداء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية جمع القلوب على الدعوة ، ووحدة الصف المسلم فى مواجهة الأعداء .

٢ ـ أن نلجأ دائماً إلى حسب الله وقوته ، ونفّر من حولنا إلى حوله عز وجل فى كل وقت وحين .

٣ ـ أن نعرف أهمية الشورى فى قيام الدولة الإسلامية .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات تقرير قواعد التعامل مع المعسكرات والتنظيمات المختلفة ، ومن هذه القواعد أن المعسكر الإسلامى يجب أن يكون همه ابتداء القضاء على قوة الطاغوت بتحطيم كل أسباب القوة . فإذا كان أسر المقاتلين وفداؤهم لا يُحقق هذه الغاية ، فإن هذا الإجراء يستبعد ، ذلك أنه لا يكون للرسل وأتباعهم أسرى إلا بعد أن يثخنوا فى الأرض ، فيدمروا قوة عدوهم ، ويستعلوا هم فى الأرض ويتمكنوا بقوتهم ؛ وعندئذ لا يكون هناك من بأس فى أخذ الأسرى وفدائهم ، أما قبل ذلك ، فالتقتيل فى المعركة أولى وأجدى .

والغنائم حل للمسلمين فى المعركة من أموال المشركين ، كما أحل لهم أن يأخذوا فدية الأسرى بعد أن يثخنوا فى الأرض ، ويتمكنوا فيها ويخضدوا شوكة عدوهم ويحطموها ، والأسرى فى المعسكر المسلم ينبغى أن يرغبوا فى الإسلام ، بوعد الله لهم أن يعطيهم خيرًا مما أخذ منهم أول مرة .

وأول ما تطرح الآيات ما يطمئن رسول الله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه ، إلى ولاية الله ـ سبحانه ـ له ولها ؛ وهو حسبه وحسبها ؛ ثم يأمره بتحريض المؤمنين على القتال فى سبيل الله ، فهم أكفاء لعشرة أمثالهم ممن لا يفقهون فقههم ، وهم على الأقل أكفاء لمثليهم فى أضعف الحالات .

ويقول صاحب الظلال:ويقف الفكر ليستعرض القوة التى لا راد لها، ولا معقب عليها ـ قوة الله القوى العزيز ـ وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة ـ التى تتصدى لكتائب الله ـ فإذا الفرق شاسع ، والبون بعيد ، وإذا هى معركة مضمونة العاقبة معروفة النهاية ، مقررة المصير ، وهذا كله يتضمنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. ومن ثم يأتى الأمر بتحريض المؤمنين على القتال ـ فى سبيل الله ـ وقد تهيأت كل نفس ، واستعد كل قلب وشد كل عصب ، وتحفز كل عرق ؛ وانسكبت فى القلوب الطمأنينة والثقة واليقين .

ومن التحريض على القتال ـ ينتقل السياق إلى بيان حكم الأسرى ـ بمناسبة تصرف الرسول ﷺ والمسلمين فى أسرى بدر وإلى الحديث إلى هؤلاء الأسرى وترغيبهم فى الإيمان وما وراءه من حسن العوض عما فاتهم وعما لحقهم من الخسارة فى الموقعة .

قال القاسمى ـ فى محاسن التأويل ـ : فى الآيات السابقة مسائل :

الأولى : ما قاله الزمخشرى رحمه الله تعالى : أن التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة ؛ لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبة ، والانطواء على الضغينة فى أدنى شىء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأتلف منهم قلبان .

ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ ، واتحدوا وأنشؤوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبغض فى الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما يشاء ، ويصنع فيها ما أراد وقيل : هم الأوس والخزرج .

الثانية : مشروعية الحضّ على القتال ، والمبالغة فى الحث عليه ، وقد كان النبى ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدو ، كما قال لهم يوم بدر ، حين أقبل المشركون فى عَددَهم وعُددَهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها

السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم» ! فقال بخ بخ. فقال : « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ » قال : رجاء أن أكون من اهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ .

الثالثة : ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا ﴾ شرط فى معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة . أى بألا يفرّ منهم .

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فنزلت ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الآية ـ فلما خفف الله عنهم من العدة، نقص عنهم الصبر ، بقدر ما خفف عنهم .

وبمناسبة قوله تعالى . ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

يقول صاحب الأساس : عن الإمام أحمد عن أنس ﷺ قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال :« يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال: يارسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وحدة الأمة ، وجمع القلوب على الدعوة ضرورة من ضرورات النصر على الأعداء .

٢ ـ الإيمان والهدف النبيل من مقومات النصر على الأعداء .

٣ ـ الشورى من النظم الإسلامية الهامة ، ومنظومة هامة من منظومات الدولة الإسلامية التى لا تقوم بدونها .

٤ ـ من اجتهد فأصاب ، فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، والله ـ تعالى ـ لا يعاقب مجتهدًا على خطئه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ
وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ
بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ
بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

١٨٦

معانى الكلمات :

خيرًا : إيمانًا وإخلاصًا .

فأمكن منهم : فأقدرك عليهم ومكنك من هزيمتهم فى بدر .

آووا : الأنصار الذين جعلوا ديارهم مأوى للمهاجرين .

ولايتهم : الولاية عليهم .

استنصروكم : طلبوا معاونتكم .

ميثاق : عهد .

كريم : خالص لا منَّة فيه .

أولو الأرحام : الأقارب .

أولى : أحق بالميراث من الأجانب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم وبينه وبين المجتمعات الأخرى .

٢ ـ أن نعلم سمو ومكانة رابطة الدين على ما سواها من الروابط .

٣ ـ أن نحرر الولاء والحب للمؤمنين ، وكذلك البراء من الكفار فى المنافقين .

٤ ـ أن نُعلى من شأن إخوة الدين ونحرص عليها وندعمها .

المحتوى التربوى :

تمثل هذه الآيات خاتمة الأنفال ، فتبين طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم ، وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ، وبيان الأحكام المنظمة لهذه العلاقات وتلك ؛ ومنه تتبين طبيعة المجتمع المسلم ذاته ؛ والقاعدة التى ينطلق عليها والتى يقوم عليها كذلك ..

إنها ليست علاقة الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ واللغة .. ليست هى القرابة ، وليست الوطنية ولا القومية ولا المصالح الاقتصادية ، إنما هى علاقة العقيدة ، والقيادة والتنظيم الحركى .

فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ؛ والذين آووهم ونصروهم ، وانقادوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم فى تجمع حركى واحد ، أولئك بعضهم أولياء بعض .

والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ؛ لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة ، ولم يدينوا بعد للقيادة ؛ ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركى الواحد .

وفى داخل هذا التجمع الحركى الواحد تعتبر قرابة الدم أولى فى الميراث وغيره ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض كذلك ، هذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات داخل المجتمع المسلم ، كما تصورها هذه النصوص الحاسمة فى خواتيم سورة الأنفال .

ويقول صاحب الظلال : والولاية بين المسلمين فى إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر ، كانت ولاية توارث وتكافل فى الديات ، وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة ، حتى إذا وجدت الدولة ، ومكن الله لها بيوم الفرقان فى بدر بقيت الولاية والنصرة ، ورد الله الميراث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم داخل المجتمع المسلم .

فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطًا لتلك الولاية ـ العامة والخاصة ـ فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ـ لمن استطاع ، فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قربات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات .

وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة ، وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم ـ إن استنصروهم فى الدين خاصة ـ على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ؛ لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية !

قال ابن كثير : لما تآخوا ـ أى المهاجرين والأنصار ـ كانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث ثبت ذلك فى (صحيح البخارى) عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد .

قال الخفاجىّ : فكان المهاجرىّ يرثه أخوه الأنصارى ، إن لم يكن له بالمدينة ولىّ مهاجرىّ ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجرىّ ، واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعد ، إذ لم تكن هجرة .

و(الولىّ) القريب والناصر ، لأن أصله القرب المكانىّ ، ثم جعل للمعنوىّ ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ فى أول الإسلام التناصر الدينى أخوّة ، وأثبت لها أحكام الأخوة

الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل : إن هذا التفسير لا تساعده اللغة ، فالولاية على هذا ، الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية . انتهى .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ .

يروى ابن كثير ما رواه الإمام أحمد عن بريدة بن الحصيب الأسلمى ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً . وقال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفّ عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم، وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » أخرجه مسلم .

فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ **يقول الشيخ محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير** : « النبى ﷺ يقول « جاهدوا المشركين بأنفسهم وأموالكم وألسنتكم ، ولا شك أن الجهاد بالسان له مقامه » .

ومن جهاد المنافقين ألا يبش لهم ، حتى يطمعوا فى خداعه ، ويقول ابن مسعود : يستنكر أفعالهم بيده ، فإن لم يستطع فبالفهرار وجهه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا ولاية لمسلم على كافر ، ولا على مسلم تحت سلطان الكافرين ، كما أنه لا ولاية لكافر على مسلم .

٢ ـ الكفار مهما تعددت مللهم ، فهم ملة واحدة ، وبعضهم أولياء بعض .

٣ ـ إبطال الإسلام لتوارث غير الأقارب بعد أن صارت الدعوة قوية ، وجعل التوارث بين الأقارب فقط .

٤ ـ المرء مع من أحب ، فعلى المسلم أن يُحرر ولاءه للمؤمنين،وبغضه للكافرين لقوله ﷺ : « من أحب قوماً فهو منهم» وفى رواية « وحُشر معهم » .

٥ ـ أخوة العقيدة ووشيجة الدين أسمى الروابط ؛ لأنها خالصة لله وفى سبيل الله ، وأصحابها على منابر من نور يوم القيامة ؛ لأنهم تحابوا بجلال الله .